المفكر الروسي ألكسندر كنيش
ابن عربي سبق هيغل بستة قرون في إبداع المفاهيم

أنشأ الحوار ونقله إلى العربية : هادي محمد اللواتي
أعدّه للنشر: جاد مقدسي

تقديم:

يتخذ هذا الحوار مع المفكر والأكاديمي الروسي الكسندر كنيش، سمة المفارقة من أوجه عدة. فهو من جوهٍ يطل على الشخصي من سيرته الذاتية والعلمية، ومن وجه ثان تدرّجه المعرفي الذي اتخذ دربة مخصوصة اجتمعت فيها مشاغل البحث العلمي والتدريس الأكاديمي وثالثاً، توجههُ الصوفي كتجربة حياة، وكمنهج لفهم الوجود وإدراك خفاياه.

جرى الحوار على نحو المحادثة المفتوحة حول قضايا شتى، لتجيء الإجابات ضمن قوالب السهل الممتنع. فلقد استوى التعقيد والتكثيف والاختصار مع البساطة ويسر الأداء على نشأة واحدة. حتى لكأنك -وأنت تستمع إليه، أو تقرأ كلماته -أمام مفكر أفلح في بيان مقاصده بوساطة لغة تبلغ الأفهام جميعاً أنَّ تعددت مراتبها وطبقاتها.

من البيِّن ان القضايا التي قوربت في الحوار الذي أنشأه وأداره مدير قناة «حيرة» المتخصصة بالفلسفة والإلهيات الأستاذ هادي محمد اللّواتي، هي وليدة حقول شديدة الخصوصية والتخصص، ولا سيما حين يتعلق الأمر بمفاهيم صوفية وعرفانية ومعارف ميتافيزيقية كان للبروفسور كنيش اختبارات بحثية وذوقية في فضاءاتها المتعالية.

إلى إنشغاله بعالمه الخاص، يعمل البروفسور كنيش هذه الأيام كأستاذ للدراسات الإسلامية في جامعة ميشيغان بالولايات المتحدة الأميركية؛ ولديه عشرات الكتب في حقول الفلسفة والتصوف وتاريخ الأديان. وقد صدر له مؤخَّراً كتابان مهمَّان هما: "الإسلام من المنظور التاريخي"، و"التصوّف: تاريخ جديد للتصوف الإسلامي"، كما ترجم إلى الروسية "الرسالة القشيرية" في علم التصوُّف لأبي القاسم القشيري. فضلاً عن ذلك لديه مقالات مهمة عديدة، تدور مدار الأبعاد السوسيولوجية والأنثروبولوجية والفلسفية للتصوف، ومنها ما صدر حديثاً تحت عنوان: "تشريح الدراسات الصوفية في الغرب وفي روسيا".

لقد تركز الحوار مع الدكتور كنيش، فضلاً عما أفصح عنه من محطات في مسيرته العلمية ومعايشاته المعنوية على أبرز الأفكار الواردة في دراسته اللاَّفتة: "من التجربة الصوفيَّة إلى علم الغنوصيَّة الصوفيَّة"، ناهيك عن قضايا راهنة ومحورية في عالم الفلسفة والتصوُّف والروحانيَّات.

وفيما يأتي وقائع الحوار:

*** نرحِّب بكم دكتور كنيش، ونستهلُّ حوارنا معكم بالحديث عن اهتمامكم بدراسة تاريخ الإسلام، ولاسيَّما الصوفيَّة والتصوُّف، كيف بدأ ذلك؟ وكيف تطوَّر من خلال انخراطك في المجال الأكاديميّ؟**

- يسعدني أن أتحدَّث إليكم عن الخلفيَّة التي انطلقتُ منها في بحوثي في مجال التصوُّف. البداية كانت غير اعتياديَّة، لأنَّ الاتحاد السوفياتيَّ آنذاك، كما تعلمون، كان بلدًا غير عاديٍّ، والأوضاع فيه مختلفة كثيراً عمّا هي عليه في الغرب أو في العالم العربيِّ أو العالم الإسلاميِّ، ذلك بأنَّ كلَّ شيء كان خاضعًا للنظام الفوقيِّ، حيث يُملى على الإنسان ما يجب فعله من قبل الدولة. وعليه، فقد بدأتُ مسيرتي الأكاديميَّة كمدرِّس للأدب العربيِّ المعاصر، وخصوصًا أعمال الكاتب والأديب المصريِّ نجيب محفوظ، الذي كان أول كاتب عربيٍّ ينال جائزة نوبل للآداب. كان محفوظ لا يزال على قيد الحياة حين طُلب مني، من قبل المشرف على رسالتي، دراسة أعماله، وخصوصًا: "ثرثرة فوق النيل"، و"اللص والكلاب"، و"ميرامار"، وبعض الروايات الأخرى منها "الشحَّاذ". تمحورت دراستي حول سعيه في البحث عن الروحانيَّة، وكانت تلك المرَّة الأولى التي أكتشف فيها بعض الروابط بينه والصوفيَّة لأنَّه كان منخرطًا في بحث صوفيٍّ عن الله، ورحمة الله، والتنوُّر، ومن هنا كانت بداية تعرُّفي على التصوُّف.

> معرفة الله متأتية من الذوق والشهود، فعلى المرء لكي يعرف أن يتخلَّق ذوقاً وشهوداً.

كنت حينها في السنة الرابعة من مرحلة الليسانس، ثمَّ أكملت مرحلة الماجستير. وبعد التخرُّج عملت في الجمارك التزامًا بنظام كان سائدًا في الاتِّحاد السوفياتيِّ يوجب على المتخرِّج أن يعمل في مكان ترسله إليه الدولة، كونها تكفَّلت بدفع تكاليف تعليمه، وهكذا أصبحت موظَّفًا لثلاث سنوات في جمارك مطار "بولكوفو" الذي كان مقرَّ الملاحة الجويَّة الرئيسيَّة لمدينة "لينينغراد" في ذلك الوقت، وهي التي استُعيد لاحقًا اسمها الأصليُّ وهو "سانت بطرسبرغ".

*** وكيف انطلقت بعملك الأكاديميِّ في الدراسات الإسلاميَّة والصوفيَّة؟**

- ذات يوم من العام 1979، ناداني أستاذي السابق البروفسور أنس خالدوف، والذي كان عالمًا مسلمًا، وقال لي: هل تعبت من البحث في حقائب المسافرين في الجمارك؟ إذا كنت كذلك، فتعال

معي وسيكون لدينا مشروع جديد. حدث ذلك في ظلِّ الكثير من التطوُّرات في العالم الإسلاميِّ، أبرزها: - الثورة الإيرانيَّة عامَي 1978-1979. واحتلال السوفيات لأفغانستان.

كانت السلطات السوفياتيَّة مهتمَّة بقدرة المسلمين على المقاومة، وتحاول معرفة الأصول الأيديولوجيَّة التي كانت ترتكز عليها مقاومتهم، ولكنَّهم كانوا بشكل أساسيٍّ مهتمّين بالإسلام المعاصر، واكتشفوا أنّه لم يكن لديهم متخصِّصون في الإسلام التقليديِّ، لذلك أعدّوا مجموعة من الباحثين لهذه الغاية، وأذكر أنَّني ذهبت وثلاثة شبان إلى مكتب مدير معهد الدراسات الشرقيَّة في "لينينغراد" فألفيناه مُحاطًا بعدد من المتخصِّصين في اللُّغة العربيَّة والدراسات الإسلاميَّة. سألهم عن: المجالات الأساسيَّة للدراسات الإسلاميَّة، فأبلغوه بتوفُّر ثلاثة اختصاصات هي: الدراسات القرآنيَّة، دراسات علم الحديث، والدراسة الصوفيَّة. عندها قال للشاب الأول، وكان اسمه إيفيم: سوف تدرس القرآن، وقال للثاني واسمه ديمتري ماركوف: سوف تدرس علم الحديث، وبعدها سألني: هل تعلم أيَّ شيء عن التصوُّف؟ فأجبته: نعم، لقد قرأت لنجيب محفوظ، فالمصطلح مألوف بالنسبة إليَّ، فقال لي: سوف تدرس التصوُّف، ومن ثمَّ توجَّه إلى البروفسور خالدوف، وسأله: من هي الشخصيَّة الرئيسيَّة في الصوفيَّة، فقال: ابن عربي. عندها قال لي: سوف تدرس الصوفيَّة من خلال أعمال ابن عربي. لقد كان ذلك نوعًا من القدر، ويمكنك تسميته صدفة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت خبيرًا في مجال التصوُّف.

*** في الحقيقة، هذا مثير للاهتمام، ولكن قبل الدخول عميقاً إلى عالم التصوف، نعود معك إلى أيام دراستك وحصولك على شهادتيَ الليسانس والماجستير في الاتحاد السوفياتي؟**

- نلتُ شهادتيَّ من جامعة "لينينغراد" الحكوميَّة، وكانت جامعة رئيسيَّة في الاتحاد السوفياتيِّ في ذلك الوقت، إلى جانب جامعة موسكو الحكوميَّة، ولكن بعد استعادة المدينة اسمها الأصليِّ، أصبح اسم جامعتي القديمة "جامعة سانت بطرسبرغ الحكوميَّة. كان لدينا برنامج لغة عربيَّة قويٌّ وغنيٌّ جدًّا، تمَّ تأسيسه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وربما سَمِعتَ كالكثيرين باسم البروفسور إغناطيوس كراشكوفسكي، الذي كان من أعظم علماء الأدب العربيِّ، وواحدًا من المستشرقين على ضفاف نهر "نيفا"، حيث تقع مدينة "سانت بطرسبرغ". وقد بدأت مع أستاذي البروفسور روزن وهو عالم ألمانيٌّ روسيٌّ، وييرغاس كراشكوفسكي، وميدنيك وآخرين كُثُر.

*** ذكرتَ أنَّ أول من أثَّر فيك هو نجيب محفوظ والأدب العربي، فهل تؤمن بهذا النوع من الأدب، لاسيما أنَّ لدى محفوظ أيضًا أبعادًا صوفيَّة عميقة؟**

- بالتأكيد. محفوظ يستخدم الكثير من الرموز والإشارات الصوفيَّة، لكن بالمقابل، نفذت إلى ذهنه الأفكار الغربيَّة، الوجوديَّة، لذا فهو يمثِّل مزيجًا مثيراً للاهتمام، بين أعلام الفكر الشرقيِّ

والإسلاميِّ، وروَّاد الفلسفة الغربيَّة أمثال: سارتر، سيمون دي بوفوار، وغيرهما من الوجوديين. لذلك، أرى أنَّ دراستي له مثمرة جدًّا، وتعلَّمت منها الثقافة الإسلاميَّة كما في "أولاد حارتنا"، مثلما تعلَّمت الكثير من الأفكار الفلسفيَّة الغربيَّة كالبنيويَّة، والوجوديَّة، وغيرها من الفلسفات التي كانت رائجة في الدراسات الغربيَّة والدراسات الإنسانيَّة.

*** في بعض الدراسات الحديثة، لاسيَّما الدراسات المقارنة العرفانيَّة، هناك من تناولوا الفلسفة الوجوديَّة، ووجدوا تشابهًا بين العرفان الإسلاميِّ وهايدغر أو غيره من الوجوديين..**

- أوافقك الرأي تمامًا، فعلى سبيل المثال، حين تقرأ هيغل ترى أنَّه يعشق اللَّعب على الكلام، وكذلك يفعل ابن عربي إذ يقول: الوجود هو أن تكون، ولكن أيضًا هو يستعمل كلمة الإيجاد، وبذلك يلعب على معنى جذر الكلمة، ولكن أذكِّرك بأنّه قام بذلك قبل هيغل بخمسة أو ستَّة قرون. إذًا، هو يستخدم هذه القدرة على امتلاك اللُّغة ليعبِّر عن التركيبة الأعمق لأفكار وتجارب الإنسان في وقت مبكر جدًّا، وضمن سياق الثقافة الإسلاميَّة.

ليس بإمكان المتصوفة أن يكملوا معارفهم الإلهية من دون نظام ميتافيزيقي

*** أشرت إلى الصلة بين الوجود والإيجاد، فهل تقصد ان إبن عربي يربط الوجود بالوَجد والوجدان؟**

- نعم، هو يستخدم عبارات مثل: وجود، تواجد، النشوة، التجارب الوجدانيَّة، التواجد العرفانيّ في سياق تبيين نظامه المعرفي حول الوجود والإيجاد...

*** في مقالتك عن الذوق أشرت في المقدِّمة إلى الثورة الإسلاميَّة في إيران عام 1979، والتي كانت لها تأثيرات أكبر على الأشخاص الذين كانوا يدرسون الإسلام أو التصوُّف، خصوصًا أنّ لبعض قادة الثورة جذورًا عرفانيَّة وصوفيَّة...**

- نعم، الإمام الخميني تواصل عبر رسالته الشهيرة لغورباتشوف، وحاول هذان القائدان العظيمان إيجاد أرضيَّة مشتركة بين الحضارة الإسلاميَّة والحضارة الروسيَّة، وإمكان التصالح بينهما على قاعدة الروحانيَّة. فكلتا الحضارتين روحانيَّتان، ويمكنني القول إنّ كلتيهما غير عمليَّتين، بخلاف

الغرب البراغماتي جدًّا. وأشير هنا إلى أنَّ اجتياح أفغانستان أظهر للسوفيات أنَّهم يعرفون القليل عن الإسلام، ولذلك كانوا يجهلون تمامًا لماذا يقاوم المسلمون الشاه في إيران؟ ولماذا قرَّروا إسقاط محبوب أميركا الذي كان يقوم بإصلاحات واسعة تُسمَّى بالثورة البيضاء؟ ولم يفهموا لماذا كان مجاهدو أفغانستان يقاومونهم بشراسة، وما الذي دفعهم إلى ذلك؟ لقد تأثَّرت بجانب من الجوانب بهذه التطوُّرات التي كما سبق وذكرت، وهي تطورات حاسمة ومصيريَّة، إلى حد أنها غيَّرت مسار حياتي وحياة الكثير من الناس. لقد قرأت رسالة الإمام الخميني للرئيس الأسبق غورباتشوف، خصوصاً لجهة دعوته المفكِّرين والأكاديميين الروس لدراسة أعمال العرفاء المسلمين أمثال إبن سينا وإبن عربي والسهروردي. ومن جانبي أبديت استعداداً لذلك. ولقد سافرت إلى طهران منذ سنتين فقط لأحصل على جائزة عن كتابي من رئيس الجمهوريَّة السيد حسن روحاني.

> الأحوال يمكن أن تحدث للمبتدئ الذي هو في مقام متدنٍّ جدًّا، أو لشخص لا يستحقُّ ذلك. لأنَّ الحالة لمحة قد تفضي إلى الاهتداء وتبديل الوجهة.

*** هل كانت هناك إستجابة حقيقيَّة لتلك الرسالة أو ذلك التفاعل بين الأكاديميين الروس والأكاديميين الإيرانيين؟**

- مع انهيار الاتحاد السوفياتيِّ، تمَّ إنشاء الكثير من المراكز الثقافيَّة الإيرانيَّة في روسيا الجديدة، وكانت نشطة جدًّا، وثمَّة مؤسَّسة في موسكو اسمها "مؤسَّسة ابن سينا"، فضلاً عن العديد من المراكز في مدن أخرى. إذًا، كانت إيران فاعلة وناشطة وتنشر ثقافتها بما في ذلك الثقافة التي ترتكز على التصوُّف، وكذلك ثقافة الشعر من الرومي، إلى حافظ، فالجامي، ومعروف أنَّ الرموز الصوفيَّة متغلغلة فيها. حتى أنَّ هناك أشخاصًا روسيين غيَّروا دينهم واعتنقوا مذهب أهل البيت مثل عبد القادر تشارنينكا. ولا ريب ان هذه ظاهرة منتشرة جدًّا اليوم، ولكن لا بد من الإشارة إلى وجود ثقافات أخرى ناشطة من خلال مراكز عربية يقوم بها تونسيون. كما بات للأتراك حضور قويٌّ قبل وبعد أزمة فتح الله غولن، وثمَّة مراكز رسميَّة لدراسة الثقافة التركيَّة في المدن الريفيَّة منها "روستوف" على نهر "الدون" في جنوب روسيا، وفي المقابل أنشأت روسيا مراكز في اسطنبول لنشر الثقافة الروسيَّة بين الأتراك.

*** الأكاديميون أو المؤرِّخون عادة حياديّون، ولكنَّهم حين ينخرطون في هذا النوع من المعرفة، ألا يترك فيهم ذلك تأثيراً على فهم الحياة المعنويَّة، أو المسار الأخلاقيِّ في الحياة، أو الأسئلة المصيريَّة حول الوجود؟**

- نعم بالتأكيد. لا يمكنك أن تبقى منيعًا تجاه تأثير التصوُّف، لأنك تغوص في ذلك البحر، وينغمس وجودك في كلِّ تلك الأفكار والقيم. فعلى سبيل المثال، في حياتي الشخصيَّة أمارس العديد من قيم التصوُّف واحدة منها التوكُّل. وثمَّة قيمة أخرى هي الرضا، أي الرضا عن الظروف التي تطرأ عليك، بغضِّ النظر عمَّا إذا كانت تلك الظروف معاكسة أو ملائمة. كما أحاول أن أمارس الحلم، فلا أغضب على الناس. أنا أدرس التصوُّف ولكن أحصل على الكثير من القيم من النصوص والأساتذة الذين درست أعمالهم. هي إذًا، عملية تبادل، فليس بالضرورة أن تصبح متصوِّفًا ولكنك تتأثَّر بالصوفيين حتى تصبح مثلهم.

*** أثناء دراستك الطويلة للتصوُّف والعرفان، أي مفهوم سواء كان نظريًّا أم عمليًّا، تعتقد أنّه مهمٌّ جدًا، أو بالأحرى أيُّ مفهوم أثَّر في حياتك غير تلك القيم الأخلاقيَّة الثلاث التي ذكرتها؟**

- هناك مقامات صوفيَّة فحواها: كيف تصل إلى الله..وقطعًا كلُّ هذه المقامات مهمَّة. فرحلتك إلى الله تبدأ من التوبة، تتوب ومن ثمَّ تتَّجه نحو الزهد، وتسير في الاتجاه المعاكس للعالم، وتدير ظهرك للدنيا، بعدها تدخل في عمليَّة المراقبة، والمحاسبة، تتفحَّص روحك، وتحاول أن تفهم دوافعك، وكما تعلم، بحسب ما ورد في الحديث المشهور، "الأعمال بالنيَّات". إذًا تحاول فهم نيَّاتك الحقيقيَّة.

إنَّ الأهداف النهائيَّة يتمُّ وصفها من قبل الصوفيين بنحو مختلف لأنَّ لديهم تجارب مختلفة. فالبعض يقول إنّه اليقين، عين اليقين، حقُّ اليقين، والبعض الآخر يقول إنّه الفناء، الفناء في الله تعالى، وثمَّة من يقول إنّه البقاء مع الله تعالى، ومنهم من يقول إنّها الحقيقة، الحقيقة المطلقة، وهناك أيضًا من يقول إنّها المشاهدة، المشاهدة المباشرة لله. هذه المفاهيم تُعدُّ أساسيَّة، إلى جانب الأبعاد العمليَّة مثال: كيف تصل إلى الله؟ ما الذي تمارسه؟ بمعنى الأحوال والمقامات. هناك أيضًا فكرة مختلفة واستثنائيَّة حول الكون، كيف تشكَّل، وكيف حدث، تُسمَّى الميتافيزيقيَّة بالإنكليزيَّة واللَّاتينيَّة بالطبع وباليونانية، ولكن يمكنك تسميتها الفلسفة الصوفيَّة.

*** في الُّلغة العربيَّة يمكن القول الرؤية الكونيَّة أو الرؤية الوجوديَّة...**

- أجل، أجل، إنَّها الرؤية الكونيَّة، أو الرؤية الشاملة للكون، إذًا الأبعاد العمليَّة والميتافيزيقيَّة موجودة معًا، وقد ناقشت ذلك في مقالتي "الذوق والشرب والري".

*** إذًا، فلندخل أكثر إلى عمق هذه المقالة لاكتشاف الجماليَّات التي عرضتها. فالصوفيون**

يستخدمون هذه المصطلحات التي هي الذوق، الشرب، الري، السُّكر، وكلُّها تتَّصل بمسألة الشرب بالمعنى المادّيِّ، ولكنها تنطبق أيضًا على البعد الروحيِّ للحياة. ومنذ القرن الخامس للإسلام، بدأوا يتحدَّثون عن تجاربهم الروحيَّة والصوفيَّة الخاصَّة التي شاهدوها في الحقائق الإلهيَّة، ولكن في ما بعد، وبشكل خاصٍّ في مدرسة ابن عربي، هذه المفاهيم اتخذت شكل الميتافيزيقيا، كيف يمكننا مقاربة هذه الفكرة؟

- لست أنا أول من يقول ذلك، فالعالم الفرنسي لويس ماسينيون، الذي توفيّ في العام 1962، كان يعشق الشيخ الصوفيَّ حسين بن منصور الحلَّاج، وكرَّس حياته كلَّها لدراسة تجربته التي كان يعتقد أنَّها الذروة في التجربة الصوفيَّة. ولأنَّ الصوفيين الذين تعاقبوا بعده كانوا مهتمّين بالميتافيزيقيا حول نشوء الكون، كان يعتقد أن أفكارهم اصطناعيَّة ومنفصلة عن التجربة الصوفيَّة الأصيلة التي كان ينسبها إلى الحلَّاج وأناس آخرين أمثال أبو حسين النوري، ومن ثم الشبلي، المحاسبي، الجنيد إلى حدٍ ما أيضًا. وهو حين قارن الميتافيزيقيا الصوفيَّة بالتجربة الصوفيَّة قرَّر أنَّ الميتافيزيقيا اصطناعيَّة، وهي بكلِّ بساطة استعارة من الأفلاطونيَّة الحديثة.

> **نحن نتذوَّق الأشياء الموجودة، بينما الله يتذوَّق الأشياء التي هي على وشك الظهور، ويعطيها وجودًا مستقلًّا، لأنَّ ذوقه ينتج الأشياء.**

إذًا، هي ليست أصيلة نسبةً إلى الفكر العربيِّ الإسلاميِّ، لأنَّه كان يعتقد أنَّ التصوُّف بأكمله يمكن استنباطه من القرآن من دون الرجوع إلى مصادر خارجيَّة، كما كان يعتقد بأنَّ الاستعارة من الثقافات الأخرى كالثقافة الأفلاطونيَّة والأفلاطونيَّة الحديثة، في المقابل، كان المفكِّرون المسلمون أمثال ابن عربي والسهروردي وغيرهم يقلّلون من شأن التجربة الأصيلة للتصوُّف. قد يمكنك أن توافق على ذلك أو لا توافق، ولكنني أصبحت مهتمًّا بهذه المقابلة بعدما قرأت دراسة ماسينيون. فهو عالم كبير، وبالتأكيد أثَّر بي، ورحتُ أجادله لأنَّني أؤمن بأنَّ التجربة الصوفيَّة والرؤية الكونيَّة الصوفيَّة شديدتا الارتباط بعضهما ببعض. في الواقع، على الصوفيين أن يفهموا مكانهم في العالم وليس فقط تجربتهم الخاصة، كما عليهم أن يكونوا منطقيين بشأن ما يقومون به، وقد اكتشفوا أنَّ الله في كلِّ مكان، وأنَّ كلَّ شيء هو تجلٍ للإله المطلق، للحقيقة المطلقة أو الحق.

لا بدَّ من القول إنَّ الصوفيين يؤمنون بأنّهم يعيشون الحالة الحقيقيَّة لشؤون العالم، والخطوة

التالية بعدها هي وضعها في سياق كونيٍّ، ومحاولة فهم لماذا لديهم مثل هذه التجربة، وبعدها لا يمكنك أن تكمل من دون الميتافيزيقيا، فأنت تحتاج لأن تشكِّل رؤية شاملة حول الحقيقة حتى تتمكَّن من وضع تجربتك الفرديَّة الخاصَّة جدًا في سياق خاص. بعبارةٍ أخرى، وبخلاف ما يقوله مانسينيون، لم يكن بإمكان الصوفيين أن يكملوا معارفهم من دون تشكيل ميتافيزيقا. فالمتكلّمون كانت لهم رؤيتهم الخاصة للعالم، من خلال نظام الجواهر والأعراض. والفلاسفة كانت لديهم نظرتهم الخاصة للعالم، لذا كان على الصوفيين أن يشكِّلوا نظرتهم الخاصَّة حول العالم. وأثناء تشكيل نظرتهم أخذوا بعض الأفكار من المتكلّمين وكذلك من الفلاسفة لكنهم أوجدوا سياقاً صوفيًّا فريداً من تجاربهم المباشرة كالذوق والمشاهدة والمراقبة.

في هذا الإطار، يقول الصوفيون إنَّ أفكارنا أفضل لأنّها ليست أفكارًا مجرَّدة فهي مدعومة بتجاربنا ورياضاتنا، كالرياضات الروحيَّة، والمجاهدات. إذًا، يجب أن تطهِّر نفسك حتى تصبح مرآةً، وهذا ما يقوله الغزالي حول الفيض الإلهيِّ، بعدها تحصل على معرفة العالم في شكلها الأنقى الذي يتجاوز قدرة العقل ويتجاوز أيضًا المعرفة النقليَّة.

في اللُّغة العربية إنَّها تتجاوز العقل والنقل، بل هي أفضل من كليهما، وبالطبع، العلماء والفقهاء ليسوا سعداء بذلك، ولم يريدوا أن يحتلّوا المرتبة الثانية، لذلك عارضوا الصوفيين، لأنّهم ادَّعوا أنّ لديهم اتصالاً بالحقيقة غير موجود لدى الفقهاء والمحدثين والمتكلِّمين. وقد كان ذلك سببًا رئيسيًّا للاختلاف بين الصوفيين وغيرهم من المتخصِّصين الدينيين.

*** لنتحدَّث عن حقيقة الذوق، وبعدها نتطرَّق إلى العلاقة بين الذوق والسماع والسرِّ والمعنى والطهارة؟**

يقول الصوفيون إنَّ الذوق والمشاهدة (الرؤية المباشرة) يسمحان لهم برؤية حقيقة الأشياء خلف الظواهر، جرَّدوا أنفسهم عن الظواهر ودخلوا إلى الباطن، وهنا يقتربون مما يقوله الشيعة حول الباطن حيث يركِّزون على أسرار الوحي والبعد الخفيِّ فيه والتي يمكن فقط للأشخاص الذين يملكون البصيرة أن يكتشفوها. فإن لم يكن لديك بصيرة فلن تتمكن من رؤية الباطن. الشيعة يعتقدون بأنَّ أئمَّتهم هم الأولياء، والصوفيون يعتقدون أنّ أساتذتهم ومشايخهم هم الأولياء. إنّهم يستخدمون الكلمة نفسها ولكنهم يقصدون أشياء مختلفة. في التشيُّع البصيرة تنتقل عبر النسب، وعند السنَّة تُكتسب من خلال رياضاتك ومجاهداتك الخاصَّة لتطهير النفس ولتجعل قلبك مستعدًّا لتلقّي الفيوضات الإلهيَّة، والتجلّيات.

*** ولكن هل تعتقد بأنّه يوجد ارتباط عميق بين التشيُّع والتصوُّف كما يظنُّ العلماء حين يقارنون بين العقيدتين، ويرون أنّه يوجد الكثير من المشتركات؟**

- إنّه مسار خطير، لأنّك لا تريد أن تقلّل من شأن التصوُّف في عيون السنَّة، وبشكل خاص لا تعطي حجَّة إضافيَّة للسلفيَّة الذين يقولون إنَّ التصوُّف هو تشيُّع مقنَّع في الإسلام السنّي. ولكن يجب أن نعترف بأنَّ الإمام جعفر الصادق، وهو السادس في سلسلة أئمة أهل البيت، كان حتمًا يركّز على الباطن ويقدّم التعليقات الأولى حول المعنى المخفيِّ الباطنيِّ للقرآن، لكنَّه كان محاطًا بأناس من شيعة علي الذين كانوا يتبعون أهل البيت، وكذلك بأناس كانوا يحبّون الأشراف والسادة لكنَّهم بقوا سنّة على المستوى الإيديولوجي.

إذًا، من دائرته برزت سلالتان من التفكير الصوفيِّ، واحدة ترجع إلى الإسلام الشيعيِّ، وفي الأغلب ترجع إلى الإثني عشريَّة ولكن أيضًا إلى الإسماعيليَّة وكلاهما يركزان على الباطن. أمَّا في العالم السنّي، فإنَّ الأولياء الصوفيين أيضًا يركِّزون على الباطن، ويدّعون أنّ معرفته تميّزهم عن الآخرين لأنّ الناس يتحرّكون فقط على السطح، ولا يرون حقيقة الأشياء التي تُرى من خلال القلب، ولأنَّ قلوبهم نقيَّة فهم يتلقّون المعرفة الأكثر دقَّة من المصادر الإلهيَّة، ويستطيعون أن يروا دوافع الناس الحقيقيَّة فقط من خلال النظر إلى وجوههم، بينما المحدثون والمتكلّمون والفلاسفة لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك لأنّهم محدودون بالمعرفة التقليديَّة أو العقليَّة.. والرؤية العقليَّة للعالم.

بعض العلماء أمثال العالم الفرنسي هنري كوربان، رأوا أنّه توجد ثلاثة مذاهب باطنيَّة في الإسلام هي: الإسماعيليَّة والإثنا عشريَّة والصوفيَّة، وينبغي أن تُدرس معًا، بغضِّ النظر عن الاختلافات. ولكن هناك من يقول لا، التصوُّف هو أكثر ديمقراطيَّة، ويسمح لأيِّ إنسان، من دون أن يكون هناك رابطة نَسَبيَّة بينه وبين الرسول، أن يعيش حياة الباطن، وأن يصل إلى حقائق العالم من خلال تزكية النفس.

*** هذا ما قصدته من سؤالي بأنَّ بعض العلماء يجدون تشابهًا عميقًا بين التشيُّع والتصوُّف ليس من الناحية المذهبيَّة، أو الناحيَّة الأيديولوجيَّة، أو المذاهب والفرق والتيَّارات الأيديولوجيَّة، ولكن بمعنى الناس الذي يسعون للوصول إلى الله من خلال التجارب المعنويَّة العميقة للأولياء والاصفياء والصدّيقين، فهذا تجلَّى في الأئمَّة الاثني عشر لأهل البيت، وأيضًا تجلَّى في علماء الصوفيَّة العظماء على امتداد التاريخ. ونجد أن هؤلاء العلماء هم إمَّا أبناء أهل البيت أو أخذوا علمهم عن أهل البيت. إذًا، من وجهة النظر هذه يمكن أن نرى تشابهًا، ومن ثم فإنّ الطريق مفتوح لكلِّ الطالبين الذين يريدون سلوك هذا الطريق...**

- التشابه واضح على مستوى مقاربة القرآن، فالشيعة يبحثون فيه عن الباطن، أو يستنبطون الباطن ويستخدمون التأويل، كما يهتمّون أكثر بالبُعد السياسيِّ، وبدور الأئمَّة، ويبحثون عمَّا يرجع إلى الدور الخاصَّ لأهل البيت. والصوفيون يفعلون الشيء نفسه، ويستخدمون التأويل أيضًا، ولكنهم يبحثون عن الأبعاد الروحيَّة للباطن.

*** ولكن بالنسبة إلى العديد من الصوفيين، وخصوصًا في القرون الأخيرة، نجد أنَّ البعدين الروحيَّ والسياسيَّ مترابطان، من خلال محاربتهم الظلم الذي حصل نتيجة احتلال الغرب أو الفرنسيين لبلاد كتونس والمغرب مثلاً...**

- لأن الصوفيين كانوا مؤثِّرين جدًا في مجتمعاتهم. فالعالم الأميركي الكبير مارشال هودجسون، من جامعة شيكاغو، والذي توفيّ باكرًا، يقول: إنَّ التصوُّف هو العماد الرئيسيُّ للنِّظام الاجتماعيِّ في العالم الإسلاميِّ الحديث وعالم ما قبل الحداثة، وكان مُحقًّا. فالصوفيون كانوا في كل مكان، ونجد في كل مدينة أو قرية أحياء لهم فيها زاويا وحلقات وخانقاه. كما كانوا مهمّين في الحياة الاقتصاديَّة، ويقدِّمون الخدمات التي لم تكن الحكومة قادرة على تقديمها، فيطعمون الفقراء، ويستقبلون المسافرين في خانقاهاتهم والزوايا، لذلك حقَّقوا شعبيَّة كبيرة، وكان كثر منهم قادرين على تحريك الناس ليقاوموا. لذلك نجد قادة مهمين جدًا في الحركات الوطنيَّة التحرُّريَّة، منهم الأمير عبد القادر الجزائري الذي حارب الفرنسيين، وتم اعتقاله ونُفيه إلى دمشق. وأيضًا شمويل أو شامل المعروف في المصادر العربيَّة، واسمه الحقيقيُّ صموئيل، وكان قائدًا للجيوش المسلمة التي دافعت عن شمال القوقاز من الاحتلال الروسيِّ.

كان الصوفيون فاعلين أيضًا في وسط آسيا ويقاومون الاعتداءات الروسيَّة، ولكن كانوا حتى أكثر أهميَّة بالنسبة إلى البريطانيين في السودان. فالمهدي على سبيل المثال وخلفاؤه، قتلوا الجنرال غوردون في معركة أم درمان. كما أنّهم كانوا نشطين في مقاومة الصينيين في "إيغورستان"، أو "سنجان" كما يسميها الصينيون. لكن، تنبغي الإشارة إلى أنَّ الصوفيين مختلفون في ما بينهم، وبعضهم اختار أن يتعاون مع الفرنسيين، فعلى سبيل المثال، ثمَّة فرقة من التيجانية كانت قناةً للسياسات الاستعمارية الفرنسيَّة، حتى أنّ قائد الطريقة متزوج من امرأة فرنسيَّة. وفي غرب أفريقيا كانت الطريقة المريدية من أتباع أحمد بمبا، بعضهم وقف بجانب الفرنسيين وبعضهم واجههم، وهذا ما وجدته مثيرًا للاهتمام لأنه خيار كلِّ شيخ بأن يقاوم أو يستسلم. ولكن السلفيين اليوم يقولون بأنّ الصوفيين مؤيّدون للاستعمار بشكل كامل وهذا ليس صحيحًا. والدليل ما ذكرناه عن القادة المناهضين للاحتلال كعبد القادر الجزائري، والمهدي في السودان.

*** وعمر المختار في ليبيا وغيره...**

- عمر المختار والسنوسيَّة التي كان يقودها قاوموا الإيطاليين إلى النهاية، وتمَّ شُنقه بسبب ذلك.

*** بالعودة إلى نقطة ذكرتها عن أنّ الإمام جعفر الصادق كان لديه تركيز على التأويل والباطن، ربما تقصد كتاب "مصباح الشريعة" المنسوب إليه...**

- أبو عبد الرحمن السُلمي المتوفىَّ سنة 1021هـ، ألَّف كتابًا من 100 صفحة سمَّاه "حقائق التفسير"، جمع فيه كلَّ الأحاديث التي قيلت بشأن الباطن، بدءًا بالإمام جعفر الصادق، ثم الحسن البصري، ومن ثم انتقل إلى عصره، كما استخدم تعليقات الجنيد، والتستري، والترمذي وغيرهم. لكن في الواقع، كان الإمام الصادق المصدر الأساس لهذا الكتاب الذي نشرت نسخة مختصرة منه في بيروت مع نص عربيٍّ، من قبل البروفسور بيرفرينغ، وكذلك توجد طبعات غير منقحة عديدة في إيران والعالم العربي. ولقد أراد البروفسور بيرفرينغ أن يقدم نسخة منقَّحة وحاول جمع كلِّ المخطوطات، لكنه لم يستطع أن يجدها كلَّها فتوقَّف مسعاه.

*** في سياق الحديث عن مسألة الذوق تذكر أنَّ أبا نصر السرّاج، في "اللُمع" يستخدم التشبيه بالخمرة ليصف الحضور المباشر لله، فهو يقارن بين التأثير المادّيِّ لشرب الخمر والسُّكْر الروحيِّ، وأعتقد هنا أنَّكم تقصدون الفناء في تجربة لقاء الله. كما أنّه يستخدم مصطلح الشرب من خلال القول إذا كان الجسد يشرب الماء فإنّ القلب يشرب اللَّذة المعنويَّة، وتذكر أيضًا السُّكْر(المحو) الذي يتسبَّب في أن يفقد المرء شعوره بنفسه وبمحيطه، بينما الصحو يقوّي وعيه لذاته وللأشياء المحيطة به، هلاَّ شرحتم لنا معنى فكرة الشرب والسُّكْر؟**

- تعلمون أنّ الخمريَّات تعود إلى ما قبل الإسلام، وكان لها ممثّلون كُثر، وأشهرهم أبو نواس الذي يحب الصوفيون أن ينقلوا عنه، إلا أنهم يركِّزون على البعد الروحيِّ لأشعاره. نعم، إذا كنت قريبًا من الله فإنّك تعيش النشوة وحتى التواجد أو المواجد، ومن ثم تفقد وعيك، لذا فقد قارنوا هذه الحالة من فقدان الوعي بالذات والمحيط بالسُّكر الذي يحدثه الخمر الطبيعيّ. لكن هذا التشبيه عبرَّ عن هذه الفكرة أو هذه التجربة بشكل جيّد جدًّا رغم أنّها تخالف الشريعة. ويقول البعض إنَّ أبا نواس استخدمها فقط من باب المعنى، وكانت بالنسبة إليه نوعًا من الاستعارة، ومنهم جيمس مونتغومري الذي يؤكِّد أنَّه لم يشرب الخمر أبدًا، وأنّه يستخدم هذا التشبيه من أجل نقل تجربته في الحياة فحسب.

إذًا، الصوفيون قاموا بالشيء نفسه، لم يشربوا الخمر، بل شعروا فقط بأنَّهم سُكارى بالتجربة التي عاشوها، وهم استخدموا التشبيه بالخمريَّات لينقلوا شعورهم بالعالم، كم يشعرون بالدوار، كم يشعرون بالضياع والحيرة حين يغفلون عن محيطهم. الشيء نفسه ينطبق على الحب الدنيويِّ لامرأة، فأنت تحبُّ الله، وتقارن حبك له بحبِّ امرأة عاديَّة. لهذا السبب، نرى قصائد الحب وقصائد الخمر قد كُرِّست من قبل الصوفيين. وبالمناسبة، لديَّ مقال خاصٌّ بشأن التصوُّف في اليمن أذكر فيه كيف تطوَّرت قصائد الحب وقصائد الخمر هناك خلال المرحلة العثمانيَّة الأولى، واتَّخذتُ مثالاً قصيدتين لأبي مخرمة والصولي.

*** تتحدَّث عن المرأة وترميز حبِّها بحبِّ الله، من ترى من الشعراء ركَّز كثيراً على هذه المسألة؟**

- شعر الرومي مليء بهذه المسائل، وأيضًا ابن عربي، والعطار والأدب العرفانيُّ الفارسيُّ.. الجامي، حافظ، السنائي. على سبيل المثال، نرى ابن عربي في "ترجمان الأشواق" يحبُّ امرأة فارسيَّة اسمها نظام، ولا نعلم إن كانت من بنات خياله أم أنها امرأة حقيقيَّة. تحكي القصة أن هذه المرأة كانت تطوف في محيط الحرم الشريف بمكة حين رآها وأصبح مولعًا بها، فكتب فيها مديحًا جميلاً، علمًا أنَّ نقّاده يقولون إنَّ علاقته بها كانت محرَّمة، معتبرين أنَّه لم يكن يُفترض به أن يقترب منها، ووصفوه بالزنديق والفاسق. وقد ردَّ على هذه الانتقادات من خلال ديوانه "ترجمان الأشواق"، حيث يشرح المعاني الروحيَّة لذلك. ومع الزمن أصبحت "نظام" نظام العالم، فهي ليست مجرَّد امرأة إنَّما رمز للانسجام الذي هو تجلٍّ للحكمة الإلهيَّة.

> لا أعلم على وجه التيقُّن ما إذا كان ابن عربي قد فكَّر بأنّه قد بلغ مرماه حيث حصل على صورة شاملة للحقيقة أو الحقِّ، فأحيانًا يصعب أن ترصده بدقَّة إذ يقول شيئًا في أحد الأبيات في ديوانه ومن ثم يقول شيئًا آخر.

*** في سياق الحديث عن مفهوم السُّكر تذكر ذا النون المصري حيث يقول: حين يعطي الله المحبين شربة من كأس حبه يعطيهم أولاً ذوق لذَّته، ورشحة من حلاوته، ما الذي تقصده بذلك؟**

- إنّه يجذب الناس من خلال إعطائهم قطرة من الحلاوة، يريدهم أن يصبحوا واعين لعظمة تلك التجربة بأن يكونوا مع الله، فيصبح الله الهدف من وراء كلِّ رغباتهم، ويغرقون فيه مثلما يغرقون في البحر، ويخرجون الرغبات الأخرى. لهذا يقول إنَّ الذوق هو بداية تلك التجربة.هذا السُّكر الروحيُّ منعش جدًّا، يرتقي به الناس عاليًا، ويبدأون بالتركيز على الله بطريقة أحاديَّة التفكير، ربما هذا هو الذي يقصده حين يتحدَّث عن الشرب، والري. لكأننا نشتهي نوعًا معينًا من الطعام، والصوفيون يتوقون إلى هذا الطعام المعنويِّ، ويريدون منه أكثر فأكثر، وفي النهاية يصبحون منجذبين تمامًا إلى الله، ومن ثمَّ يتصرفون بنحوٍ عشوائيٍّ كما لو أنهم فقدوا عقولهم، مثلما فعل القلندريون والدراويش. وفي هذا الإطار، يقول الجنيد: لا ينبغي أن تتوقَّف عند ذلك، بل يجب أن ترجع إلى العالم، وهو البقاء بعد الفناء. يجب أن ترجع إلى البقاء وإلاَّ ستصبح مجنونًا جامحًا لا يهتمُّ سوى بخلاصه هو فقط. لذا، فإنَّ هذه التجربة يجب أن يتمَّ نشرها لأنَّها عظيمة.

*** مقام البقاء أعلى من مقام الفناء، لأنَّك في المقام الأول تأخذ بأيدي الآخرين، بينما في المقام**

الثاني تصل وحدك. فهل يمكننا مشاهدة الحقِّ بين الخلق وليس فقط مشاهدة الحقِّ؟ ربما أنت تشاهد تجلّيًا أعظم؟...

- أنت مع الله ولكن أنت أيضاً في هذا العالم. هذا ما يفعله النقشبنديون حين يديرون تجارتهم، بينما يركّزون على معرفة الله، ولديهم رابطة بالشيخ. لقد اعتقد الجنيد وعدد من الصوفيين بأن البقاء هو مرتبة أعلى، ولكن بعضهم الآخر أمثال الحلاَّج والخرقاني وعين القضاة الهمداني، اعتقدوا بأنّ الفناء هو التجربة النهائيَّة. إذًا، الصوفيون ليسوا عقلاً واحدًا بل لديهم مفاهيم مختلفة حول كيف يجب على الإنسان أن يتصرَّف بشكل مسؤول أو غير مسؤول، وإذا ما كان يجب أو لا يجب أن يكشفوا عن المعجزات وهو ما يُسمَّى بإفشاء الكرامات. لقد اتُهم الحلاج بذلك حيث مشى في الشوارع، وذهب إلى السوق ليقوم بالكرامات أمام الأعين فيجذب الناس، أمَّا الجُنيد فلم يحب ذلك، وقال بأنَّ عليك أن تخفي كلَّ شيء، أو يجب أن تشارك تجربتك مجموعة مُختارة من الناس، لديهم تجربتك نفسها.

*** عين القضاة مثلاً، كان قاضيًا يتفاعل اجتماعيًّا مع الناس حتى وإن كان قد آمن أكثر بالفناء. لقد كان متحقِقًا بالبقاء أيضًا ويشاهد الحق داخل المجتمع...**

- نعم، ولكن أفكاره حول النفس الإنسانية هي بالأساس نفس إلهيَّة، وهذه فكرة خطرة. ذاتك هي ذات الله. إذًا، يمكن أن أقول إنَّ الهمداني صنع الكثير من الأعداء نتيجة عمله مع الناس، مع المؤسَّسة الحاكمة، حتى أنَّهم استخدموا أفكاره الباطنيَّة ضدَّه من أجل أن يقتلوه. الحلاَّج أيضًا كان محطَّ الأنظار، ويُنظر إليه من قبل الوزراء على أنَّه يلهم الناس لتثور، ويشكِّل تهديدًا للسلطة، لذلك، كان عليهم عزله. فلو بقي مثل الجُنيد داخل محيطه، ولم يكشف عن كراماته للآخرين، لبقي آمنًا.

*** كذلك أُعدموا السهروردي...**

- نعم، لقد أُعدم بأمر من صلاح الدين الأيوبي، وكلَّف ابنه بقتله. كان صلاح الدين يظنُّ أنَّ على المسلمين ألاَّ يهتمّوا بالأفكار التي كانت تنتشر ويعتبرها مفرِّقة وخطيرة، وأن يتَّحدوا حول هدف واحد هو الجهاد ضدَّ الصليبيين، أو الإفرنج كما كانوا يسمّونهم في ذلك الوقت، وكان يعتقد أنّ مثل هؤلاء الأشخاص الباطنيين غير العاديين يزلزلون القواعد، وربما تُفسَّر أفكارهم على أنَّها توحيد بين جميع معتقدات الأديان، وعندها لماذا نقاتل المسيحيين إذا كنَّا نؤمن بالأفكار الأساسيَّة نفسها؟ إنها فكرة خطيرة.

*** ولكن حياة الأنبياء هكذا أيضًا، كانوا يأتون ليزلزلوا قواعد المجتمعات والتقاليد، والكثير منهم قُتلوا لهذا السبب، هل يمكننا المقارنة بهذه الطريقة؟**

علوم المبدأ LLMOLMABDAA
العدد الثالث ـ 1444هـ ـ خريف 2022م

- نعم إنَّها الثورة الكاريزماتيَّة، كما يسمّيها عالم الإجتماع الأميركي من أصل ألماني ماكس فيبر. فكلُّ نبيٍّ يأتي بقانون جديد كان يرفض الطرق السابقة. وكذلك المسيح عليه السلام رفض الفرّيسيين، ومحمَّد صلى الله عليه وآله رفض الوثنيَّة، وقبلهما موسى عليه السلام رفض عبادة الأصنام والوثنيَّة، وكذلك إبراهيم عليه السلام. إذًا، هذه الشخصيَّات الوحيانية الكاريزماتيَّة أحدثت ثورة، ولكن لاحقًا كُبح الدافع لتلك الثورة، حتى تحوَّل إلى ضدِّه. لذلك هناك حاجة للتجديد والمجدِّد.

*** دكتور كنيش، ذكَّرتني عند حديثك عن الفناء والشرب والسُّكْر، بمقام الحيرة، والصوفيون يتحدَّثون كثيراً عن الحيرة التي يشعر المرء بفضل الله الواسع وتجلِّياته العظيمة، ما تعليقك على هذا الأمر؟**

- إنّها حالة للعقل يمدحها ابن عربي لأنّه يعتقد أنّها الآلة الأفضل ليُمسك بالشؤون المتحوِّلة باستمرار للمقدَّس المطلق. فالله المطلق لديه شؤونات مختلفة كثيرة تتجلَّى في كلِّ دقيقة، في كلِّ لحظة، في خلق جديد. إذا فكَّرت بالله كالمعتزلة فإنَّك تفكِّر بذات مجرَّدة لا يمكن أن توصف بوصف ثبوتيٍّ. وإذا فكَّرت بالله على أنّه رجل كبير يجلس على غيمة أو على ذاك العرش فإنّه يقول إنَّ هذه الفكرة عن الله تمسَّك ببعد من أبعاده، كلُّها صحيحة. لكن الصوفيين ينتقلون من واحد إلى آخر في كلِّ لحظة، لذلك فهم في حالة مستمرَّة من الارتباك والحَيرة لأنَّ هذه هي أفضل طريقة لمواكبة أشكال وجود الإله المطلق. لذا، أعتقد أنها فكرة عظيمة تعكس الصورة الديناميكيَّة للكون التي لا نجدها عند المعتزلة أو الأشعريَّة أو الفلاسفة.

*** هذا ليس تحيُّراً بالمعنى السلبيِّ الذي يحصل حين أكون مليئًا بالشكّ.. إنّه أمر مختلف تمامًا...**

- إنّها آلة لمعرفة الله، ومواكبة تجلّياته المتبدِّلة بشكل مستمرّ.

*** كما يغرقك شخص بالكثير من الجمال والفضل...**

- تشعر أنك مغمور بالعظمة الإلهيَّة، لهذا تحتار، فإذا ربطت نفسك بتجلٍ خاص فإنّك تعلق فيه، وعندها سوف تبدأ بالحكم على التجلِّيات الأخرى على أنَّها خاطئة. حتى الأصنام تعكس بعض الأبعاد، الجمود على سبيل المثال، للوجود المطلق تأخذه على أنّه من التجلّيات الطبيعيَّة لله. يمكنك أن تجد الله في معبد الأصنام، في الكنيسة، في الكعبة، وفي الحب، وابن عربي يقول هذا في واحدة من القصائد المشهورة في "ترجمان الأشواق".

*** نلحظ اختلافًا بين الفهم العقليِّ والمعرفة التي نكتسبها من خلال الشهود والذوق، وثمَّة من يميّز بين العلم الحصوليِّ، والمعرفة العقليَّة، والعلم الحضوريِّ، فكيف يمكننا الحصول على أدلَّة**

جيّدة لنستدلَّ على أنَّ مثل هذا العلم علم الذوق أو علم المشاهدة هو مرتبة لفهم الحقيقة أعلى من المرتبة العقليَّة أو التصوُّريَّة، هل هو شيء مختلف، هل هو نوع آخر من المشاهدة، كيف يمكننا إثبات أنَّه مرتبة أعلى من الفهم؟

-هذه هي المشكلة، لا يمكننا إثبات ذلك. بالنسبة إلى أولئك الذين يعيشون حسَّ التذوُّق يعتبرون أنه أمر محسوم ومسلّم به، أمَّا الذين يرفضونه فلا يمكنك أن تقنعهم به لأنّه لا يمكنهم أن يجرِّبوه، ولا يحاولون حتى أن يجرِّبوه ويقولون إنّه شيء من اختلاق الخيال ويكرِّرون ما يقوله قادة التنوُّر الأوروبيِّ من أنَّ المعرفة العقليَّة هي المعرفة الوحيدة الصحيحة، ولكن بالنسبة إلى إسلام ما قبل الحداثة فإنَّ الإدراك الصوفيَّ قد وُجد وكان قانونيًّا ولكنهم اختلفوا حول حقيقته. فإبن تيميَّة مثلاً كان يقول إنّه إدراك خاصٌّ بكلِّ شخص، وانه تعبير عن تصوُّراته الخياليَّة، بينما آخرون من أكابر عرفاء الصوفية مثل ابن عربي كانوا يعتبرونها المعرفة الوحيدة الحقيقيَّة.

*** لفتنا أنَّك تذكر كلامًا مقتبسًا من ويليام تشيتيك في هذا السياق حيث تقول: ان الاهتمام الأساسيُّ لابن عربي ليس المفهوم العقليَّ للوجود، بل أن تعيش وجود الله وتتذوَّق، وأن تجد الوجود، وأن تكون الحق...**

- هذه هي الحيرة، فأنت في حالة من البحث الدائم والتحيُّر على أمل أن تحصل في النهاية على الصورة الكاملة. إنّها العمليَّة التي تهمُّ وليس المشاهدة النهائيَّة لأنَّك حيت تصل إلى المشاهدة النهائيَّة - يقول ابن عربي في مكانٍ ما من الفتوحات- كل الحُجُب ترتفع وترى الحقيقة بكلِّ عظمتها، ولكن هذا يحصل فقط يوم القيامة.

*** برأيك، لماذا طالب المعرفة لا يعيش تجربة الري؟ ففي عقيدة ابن عربي، سوف يتذوَّق، ومن ثم سيبدأ بالشرب، فلماذا لا يصل إلى هذه الدرجة؟**

- لأنَّ ابن عربي يقول إنَّ الحقَّ لا محدود، وشؤون الله لا تنقضي، لذلك لا يمكن لشخص أن يجرِّب ويعيش كلَّ تلك التجلّيات اللَّامتناهية لله، فالله يفاجئ الناس بشكل دائم بتجلّيات جديدة ومتجددة... وحتى يصل الفرد إلى الهدف النهائي ينبغي أن يكون في حالة دائمة من التحيُّر والدهشة، وهذا يكاد يكون مستحيلاً. حين تصبح مدمنًا تقريبًا على توقُّع معرفة جديدة، كما أذكر في المقال، تحصل على معرفة معيَّنة تهيّئك لاستقبال صورة أخرى لله، وبعد أن تحصل على تلك الصورة تتهيَّأ لاستقبال صورة أخرى، وهذا أمر لا متناهي.

*** تقول بشكل أساسي إنّك كلما شربت عطشت أكثر..**

-صحيح، يمكن أن أقول ذلك.

*** تذكر أنَّ قلب الشخص يصبح مثل المحيط الذي لا شاطئ له، لأنَّه يبدأ باكتشاف الحقائق اللَّامتناهية المتجلّية في الطبيعة، وحقائق الروح التي هي أيضًا غير محدودة، كما يذكر عين القضاة الروح متَّصلة باللَّامحدود، وأنَّها نفخة من روح الله فكل شي مرتبط بالتجلّيات والروح...**

- نعم، أنت تحمل في ذاتك تلك اللَّامحدوديَّة، كلُّ شؤون العالم في نفسك، وروحك هي انعكاس روح الله التي هي لامحدودة، لأنَّ الله لامتناهي في الأحاديث، ولا يمكن أن يستنفد الشؤون الموجودة فيها.

*** تتحدَّث أيضًا عن فرادة القضمات المختلفة، وتذكر مثالًا أكل تفاحة، لتقول: إنَّ كل قضمة لها مذاق مختلف، فلا تكرار في المذاق...**

- بالضبط، المذاق دائمًا مختلف.

*** فلنقدِّم إذاً، خلاصة حول الشرب في المذهب العرفانيّ...**

- عرفاء الصوفية يستخدمون الذوق والشرب من أجل أن ينقلوا هذه الأفكار كرموز لأشكال مختلفة من الإدراك يعتبرها الصوفيون الأكثر عمقًا والأكثر أصالةً، ويقابلون أصالة الذوق وفهم الحقائق بالطرق الأخرى لمعرفة الله والعالم، فيعتبرونهم صحيحين، لكن يعتبرون طريقتهم هم في المعرفة أعلى مرتبة، ونتيجة لذلك يعرِّضون أنفسهم للنقد بسبب تفخيم عباراتهم من قبل الفقهاء والمتكلّمين وبالطبع الفلاسفة الذين لم يدركوا حقيقة كرامات الأولياء من المعتزلة..

إذن، استخدم الصوفيون المفاهيم المجازيَّة والمفاهيم الماديَّة لنقل تجربتهم للكون، بخلاف الآخرين الذين استخدموا الحديث كوحدة للمعرفة أو الجوهر، ومفهوم الذرَّة، لتشكيل العالم، ولينقلوا فهمهم له، أو استخدموا العقل كطريقة للتجربة. إنهم يستخدمون الذوق ويعتبرونه شكلاً أعلى للفهم ولرؤية العالم، إلى جانب صور أخرى كالمشاهدة المباشرة المكاشفة أيضًا.

*** أعتقد أنَّ لديهم مترادفات مختلفة مثل الذوق، الكشف، المشاهدة، الإلهام، الإلقاء، التجلّي، علم البصيرة، ويستخدمون مصطلحات مختلفة ليعبِّروا عن الفكرة نفسها. برأيكم، هل يستخدمون هذه المترادفات من أجل إنشاء كلمات أكثر، أم أنَّ كلَّ مصطلح يعكس تجلّيًا معيَّنًا أو أسماء معيَّنة أو أحوالًا معيَّنة؟**

- هذا صحيح، ثمَّة الكثير من المترادفات، وأنا ركزت على تلك التي لها علاقة بالإدراك الحسّيِّ للذوق لأنَّني وجدت الأمر مثيراً للاهتمام. كيف يبدأون بالشيء النفسيِّ والدلالات والأبعاد العاطفيَّة للذوق، وكيف يصبح الأمر بشكل تدريجيٍّ طريقة ميتافيزيقيَّة لرؤية العالم أو جعله أمرًا تصوُّريًّا. فالله أيضًا له ذوق، ولديه وحده ذوق خلق الأشياء الذي لا يمكن للآخرين أن يمتلكوه لأنَّه وحده

هو الخالق. من هنا، فإنَّ ذوق الله مختلف عن ذوق البشر، ولا يمكننا أبدًا أن نعرف كيف يتذوَّق الأشياء* **النقطة التي ذكرتها هنا تميِّز مقاربة ابن عربي لمصطلح الذوق عن مقاربة الصوفيين الذين أتوا بعده، فهو يقول إنَّ الذوق يبدأ من عند الله حين ينجز الخلق، وبهذا يستخدم مصطلح الذوق من ضمن صفات الله...**

- نعم، لقد أُعجبت كثيراً بطريقة استخدامه هذه حيث أراد أن يؤكِّد على فرادة علم الله وتجربته. فذوقه تعالى مختلف من ناحية أنَّه ينتج العالم في حين أنَّ البشر لا يمكنهم تذوُّق ذلك الذوق.

*** ولأنَّ معرفة الله من الذوق والشهود، فعلى المرء أن يحاول أن يتخلَّق أو يتألَّه من خلال الذوق، أو هذا النوع من المعرفة..**

- بالضبط.

*** حضرتك تربط مصطلح الذوق أيضًا بكلِّ الأحوال أو الحقائق التي يدركها الصوفيون، وأعتقد أنك تذكر في مقالتك هذه المصطلحات: المحو والإثبات، الفناء والبقاء، التلوين والتمكين، الصحو والمحو، القبض والبسط، الهيبة والأنس، الجمع والفرقة، فهل كلُّ هذه الحالات العرفانيَّة ترتبط بحقيقة الذوق؟**

- نعم إلى حدٍّ ما، فأنت تتذوَّق الحالات المختلفة لعقلك، والحالات النفسيَّة. فعلى سبيل المثال، قد تتذوَّق المحو: أنا لا شيء، ومن ثمَّ تشعر بالحقارة وبأنَّه لا قيمة لك، وبعدها تصحو على عالم الكثرة وجمال، وتشعر أنك جزء من هذا العالم العظيم، وتشعر بالرضا عن نفسك. أنت هنا تحصل على مذاقات مختلفة حتى في داخلك. في ما يتعلَّق بالقبض والبسط، فأنت تشعر بخيبة أمل، وبأنَّك مضغوط وحزين، وبعدها تعيش تلك الحالة من العظمة فتتقبَّل العالم وتشعر بأنك ممتلئ به، ولا تعود تشعر بتقلُّصات القبض، لأنَّ روحك تصبح محيطة بالعالم بمجموع التجلّيات الإلهيَّة كلِّها. الأمر نفسه ينطبق على ثنائيَّة الرَّجاء والخوف وما إلى ذلك. وكلٌّ من هذه الثنائيَّات يحتاج لأن يُدرس بشكل مستقلّ.

*** هل هذه الأمور خاصَّة بالصوفيين الذين وصلوا إلى مقامات عالية من الروحانيَّة، أم أنَّ ثمَّة تجلّيات بحسب اختلاف قلوب الناس، واختلاف الأرواح، واختلاف المراتب؟ وهل يمكن للناس العاديين أن يشهدوا مثل هذه المقامات، بحسب المرتبة التي يصلون إليها؟**

- الصوفيّون يقولون أنَّه يمكن لأيِّ شخص أن يعيش مثل هذه التجربة، ويمكن لسفَّاح أو قاتل أن يتوقَّف عن القيام بأفعال سيِّئة لأنَّ الله قد أرسل إليه إشارة وعمل بها. إذًا، فالاستفادة من هذه التجربة هو الأمر المهمّ. لقد أجاد عرفاء الصوفية التقاط الإشارات من الله، ثم بدأوا بعد ذلك

بزرعها؛ بمعنى أنَّهم عاشوا الأحوال أوَّلًا، ثم عملوا على تصفيتها من الشوائب لأجل تثبيتها، أو ما يُعبرَّ عنه باللُّغة العربيَّة بـ"التمكين". يريدونها أن تثبت لتصبح مقامات. بمعنى أوضح، يمكن لشخص أن ينسى الأمر، وينتقل في اللَّحظة التالية إلى عمله وشؤونه، وقد نرى شخصًا آخر يريد أن يجرِّب ذلك مرَّة أخرى ليثبته ويمكن أن يصبح مقامًا دائمًا، بعدها يجرِّب حالاً آخر ويريد أن يثبته وينتقل إلى المقام التالي. من هنا، فإنَّ الأحوال والمقامات مرتبطة بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا.

*** لذلك يميّزون بين أحوال السالكين ومقامات العارفين..**

- صحيح.

*** إنها إشارات من الله لمختلف الناس، وحتى الإشارات ذات مراتب، فالقلب الناضج له حظوظ أعلى من القلب العادي...**

- نعم الناضج بالنضوج، ولكن ما هو لافت في عالم التصوُّف، ولدينا الكثير من القصص في "الرسالة القشيريَّة"، أنَّه يتحدَّث كثيراً عن الناس الذين تمَّ ازدراؤهم من قبل الجميع وهم أخلاَّء الله، بمن فيهم المخنَّثون. فهو يقول إنَّ الله يعمل بطرق غير متوقَّعة، ويمكن أن يكون الأشخاص الذين يزدريهم الناس أخلاَّء الله لكنهم مغمورون. وفي هذا السياق، يقول ابن عربي إنَّ القطب الذي صادفه في شمال أفريقيا كانت يده مشلولة، والجميع كانوا يظنّون أنَّه مجرَّد متسوِّل، أمَّا هو فأدرك ببصيرته أنَّه قطب الزمان الوليُّ الأعلى لعصره، والأولياء الحقيقيون يمكن أن يستتروا خلف مظاهر غير لائقة أبدًا. لذلك، فإنَّ الصوفيين لا يحكمون على الناس من خلال مظهرهم، بل يحاولون أن يروا ما هو موجود في الباطن، بينما السلفيّون وفرق أخرى، على سبيل المثال، يعتبرون التزامك بالشريعة يرتكز على طول لحيتك، وعلى حلق أو عدم حلق شاربيك، وعلى طول بنطالك، وهو ما يعلِّمنا الصوفيون أن نتجاهله لأنَّنا يجب أن ننظر إلى الباطن، فربما يكون وراء هذا المظهر المتواضع جدًّا قدّيس عظيم.